كلمة الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية في احتفالية اليوم العالمي للغة العربية

٢٠١٦/١/٢٠

أيها الحفل الكريم:

لقد درجت مجتمعاتنا على إقامة الاحتفالات في مختلف المناسبات، فمنها ما يكون لاستذكار حدثٍ سعيد وذلك يكون في الموعد المقابل لموعد حدوثه، ومنها ما يكون للإلحاح على تاريخ محدّد يمثّل فتحاً أو انفتاحاً في حياة الفرد، بما يعيد إلى الإنسان جوًّا من المشاعر التي كانت جيّاشة في وقتها ولم تَخْبُ ترددتها، وما زال رنينها يملأ القلب حبوراً.

ولذا فقد تساءل البعض هل من جديد نحتفل به في اليوم العالمي للغة العربية الذي أعلنته الأمم المتحدة قبل ست سنوات،أي هل تَحثُّنا على الابتهاج تغيراتٌ طرأت على اللغة العربية منذ ذلك الإعلان، تغيراتٌ زادت من مقامها أو أدخلتها في مجال لم تكن معروفة فيه، أم أن ذلك الإعلان قد أضاف لها قوةً أو عزةً لم تكن لتحظى بها لولا ذلك الإعلان؟

إن الإجابة الوحيدة عن هذه التساؤلات هي القول إن هذا الإعلان من قبل المنظمة العالمية قد أدخل العربية في تعداد اللغات العالمية، التي يمكن استعمالها في الاجتماعات الدولية الرسمية، وقد تعهّدت المنظمة بتقديم المترجمين الخبراء، ليتمكن ممثلو الدول العربية من مناقشة الأمور بلغتهم القومية.

أما أن يُعتبر الإعلان مفخرةً يعتز بها أبناء هذه اللغة، بأن تكون قد أصبحت اللغةَ السادسة التي حازت هذا التمييز عن اللغات الأخرى، ففيه شيء من المبالغة في نظر من يعرفون حقائق اللغة العربية وتميّزها بانفتاحها غير المسبوق.

ذلك أن اللغة العربية ليست لغةً ناشئة تُبذَل الجهود لاستكمال بنيانها، في مسعىً يهدف إلى تأكيد قبولها في رهط اللغات العالمية.

وحقيقة الأمر أن اللغة العربية قد تجاوزت مُعطّلات عديدة في تاريخها، منها احتلال دام قروناً أربعة، ومنها حَملات الفِرنجة الاستيطانية طيلة عشرات السنين، وأخيراً ربعُ قرن من وصاية كانت تسعى إلى فرض لغتها بديلاً عن العربية، ولكن لغتنا قد خرجت من هذه المِحَن ناصعة الجبين مرفوعة الرأس لم يعكّر صفاءها إلا فُتاتٌ من حضارات عابرة.

إنها لغةٌ دخلت التاريخ بدخولها بلادَ الشام، حاملةً أنفاس بداوة مفترضة في جزيرة العرب، دخلت مثقلةً بلواعج الشوق إلى بطولات خلّدتها إيقاعاتها الشعرية،

وإلى مشاعرَ رفيعة كانت تنبع من أعماق الفؤاد العاشق، والأهم أن دخولها كان منطلقاً لبريق دين جديد ينظر إلى الإنسان نظرة عُلْوية تؤكد إنسانيته، وتربطه بصلة حرّة نقيّة بخالقه. وكان أن غمرت عطايا هذا الدين رقعةً واسعة من الأرض في المشرق العربي والشمال الإفريقي وصولاً إلى إنشاء ثقافة أندلسية مازالت تُثير الكثير من الإعجاب بما فيها من المدهشات.

إلا أن البداوة التي تُدمَغ بها جزيرة العرب لم تكن حقيقية كما يُصرّ عليه الكثيرون، بل إن مدن الجزيرة كَيَثْرِبَ ومكةَ كانت مَرتعاً لأقوام غريبة مختلفة، يأتون من أنحاء القارة الآسيوية، يعبرون الجزيرة حاملين الحرير والتوابل والبخور والمجوهرات، إلى شواطئ البحر المتوسط وهم ينتمون إلى ثقافات مختلفة.

كما أن الحضارات العالمية التي كانت معروفة في تلك الحقبة من التاريخ كانت ممثلة في مملكتين عربيتين إحداهما على اتصال ببيزنطة، والأخرى على اتصال بالإمبراطورية الساسانية، مع كل ما يمثل ذلك من تبادلات ثقافية لا يمكن ألّا يكونَ لها تأثير في باقي الجزيرة.

كذلك فقد وجد العرب في بلاد الشام قبائل عربيةً مستقرةً في باديتها وفي بعض قراها: طيِّئ في حوران، وتميم وبكر وربيعة في المنطقة الفراتية. كما أنهم وجدوا ثقافة آرامية عريقة أنتجت مؤلفات علميةً عديدة معظمها باللهجة السريانية تُرجِم أكثرها عن اللغة الإغريقية. فأفادوا من الفكر الفلسفي اليوناني في كتب أفلاطون وأرسطو، ونقلوها من السريانية إلى العربية للتعمّق في فهمها.

ومن بلاد الشام انتشرت ثقافةٌ عربية إسلامية على رقعة واسعة غمرتها روحانيات هذا الدين الجديد، المحمولِ على لغة متكاملة النظام غمرت فارس وخراسان وبخارى وخوزستان وصولاً إلى السند، وهي لغة انتشرت عن طريق المنابر أكثر مما انتشرت عن طريق السيوف، فَغَدت لغةَ تلك الأقوام في صلواتهم، وأنشأت علاقات وارتباطات مجتمعية بين أفرادهم مؤكدة قيمة إنسانيتهم.

وهذا ما جعل اللغة العربية تَدخل في هذه اللغات المشرقية للتعبير عن كثير من المفاهيم العملية، والمجرّدات الثابتة، والمشاعر في لغة التخاطب، وهذا ما جعلنا اليوم نتعرف عدداً كبيراً من المفردات العربية في اللغة الفارسية وفي اللغة التركية، بما يمكننا من إدراك الموضوع الجاري بحثه، وذلك كتابيًّا وسماعيًّا.

أليس هذا موقعاً عالميًّا تصبح فيه لغةٌ ما جزءًا أساسيًّا من التواصل بين الأفراد؟ أليس دخول ألفاظ عادية كالمحبة والإخلاص والإدارة في لغة أخرى واستعمالها في التخاطب يجعل منها ما يشبه المصطلحات التي تدخل إلى لب اللغة

مستنَداً لأمور غير مألوفة؟

ولاشك بأن الإنجازات العلمية الدخيلة هي من أكبر المؤثرات في الاعتماد على لغة من اللغات، إذ إنها تُبرز لها قيمةً إنسانية وبراعةً فكرية.

كانت أوربا ناشئة تحت حكم شارلمان، وهو زعيم إحدى القبائل الجرمانية (الفرنجة) نَصّب نفسه إمبراطوراً على أوربا الغربية، وقد عرفوا وجودَ حضارة برّاقة في المشرق عندما أرسل هارون الرشيد لشارلمان تلك الساعة المائية التي أدهشتهم بدقتها وحسن صنعها، وهي مماثلةٌ للساعة التي كانت تحدّد أوقات الصلوات في مدخل المسجد الأموي بدمشق. فقد عرفوا وجودَ عالميةٍ مشرقية تكتنف الأرض من ضفاف الأطلسي إلى قلب آسيا حتى الصين، تسودها لغةٌ واحدة وينتظم حكمُها تحت نواظمَ أتى بها كتاب سماوي.

وعادت أوربا إلى الانبهار في القرن العاشر الميلادي حين وصلت إليها فلسفةُ الإغريق مكتوبةً باللغة العربية: كُتُبُ أفلاطون وأرسطو. فقد أعجبوا بشروح ابن رشد لأرسطو وأطلقوا عليه اسم الشارح، لأنهم وجدوا في هذه الشروح نظرةً إلى الفلسفة أوضحَ مما كان يكتبه المدْرَسيّون الذين غيّبوا في شروحهم قيمةَ العقل البشري هادياً لبني الإنسان وأدخلوهم في غَيْبيّات لا سبيل إلى فهمها.

وهنا ظهرت عالميةٌ أخرى للغة العربية حين تنافست المراكز العلمية للحصول على الكتب العربية، الناقلة للعلوم الإغريقية في الطب والرياضيات وعلم الحِيل (الميكانيك) وعلم الفلك والكيمياء إلى جانب الخيمياء، أي المسعى إلى قلب المعادن العادية إلى ذهب، وهي كتب تتضمن إضافات العرب إلى النصوص ونقداً لها. إن هذا الشغف بالكتب العربية كان بقصد تَيَقُّنِ حقائقِ العلوم التي وصلت إليهم، فقاموا بترجمتها لمقارنة محتواها بما بين أيديهم.

وكانت تلك الدراسات منطلقاً لإعادة النظر في العلوم، معتمدين المنهج العلمي الذي أبدعه العرب، فقد وجدوه في كتاب الحيوان للجاحظ وتجارب جابر بن حيان وعلي بن العباس.

إنها عالمية عربية كانت أساساً لما أطلق عليه اسم النهضة Renaissance التي انبلجت منها أنوار عصر التنوير بفلاسفته وعلمائه وفنانيه.

لقد أصبحت علوم العرب بعد القرن العاشر عالميةً يقرؤها رجال العلم في أوربا، كما تُناقشها الحلقات العلمية في الجامعات التي أُسست في ذلك العهد. وقد شارك العرب في إنشاء تلك الجامعات كجامعة مونبليه في فرنسا، وهذا ما نعتبره موقعاً علميًّا عالميًّا.

فقد دُرّست كتب ابن سينا الذي أضاف شرحين على كتب جالينوس ناقداً ما رآه فيها من أمور تتناقض مع ما وجده بنفسه حين تشريح جسم الإنسان، وذلك إضافة إلى خبرة أخذها في ممارسته الطبية فيما يتعلق بتشخيص الأمراض ومعالجتها.

وقد يكون أهمَّ ما أضافوه إلى معارف زمانهم اتّباعُهم لما أصبح يُدعى المنهج التجريبي في العلوم، إذ إنهم أسسوا الطريقة التي يجب سلوكها من أجل الوصول إلى الحقيقة العلمية عن طريق التجارب ومقارنة النتائج.

أيها السيدات والسادة:

بلى نحن نود الاحتفال بهذه العالمية الجديدة التي أضفت طابعاً حداثياً على موقع لغتنا، وأبرزت محمولَها الحضاري المتكامل في الفكر على أعلى المستويات، وفي الفن على اختلاف ظواهره، كما بيَّنتْ عظمة لغة مازالت قادرة على استيعاب مختلف العلوم.

ولا بد من القول إن تباشير هذا الإعلان كانت بادية منذ منتصف القرن العشرين. ولا يرتبط بعدد الناطقين بالعربية في العالم بل هو تقدير قيمي.

فقد وصل خريجو الجامعات العربية إلى أوربا وأمريكا للارتقاء في الميادين العلمية عن طريق الدراسات العليا، فكان معظمهم قابلاً للمشاركة في الدراسات بعد تغلبه على عقبة اللغة الأجنبية، وذلك بالاعتماد على ما قد توصلوا في دراستهم الأصلية إلى استبطانه من المقومات الأساسية للعلم الذي اختاروه.

ومن المعروف أن تدريس العلوم في مجموع الثانويات العربية قائم باللغة العربية كما تجري الامتحانات بالعربية أيضاً.

وسواء أكان التدريس الجامعي باللغات الأجنبية أو باللغة العربية فإن ما يستند إليه في هذا التدريس هي الأسس العلمية وتطوراتها التي استوعبها الطالب خلال الدراسة الثانوية. ذلك أن المفاهيم العلمية ترتكز إلى المصطلحات ومتى استقرت تلك المصطلحات في المخزون اللغوي الثقافي للطلاب سَهُل عليهم استعمالها في السياقات العلمية. ويفخر مجمعنا بأنه مازال يبذل مجهوداً كبيراً في مسايرة العلوم السريعة التطور، وتحديد محتوى ألفاظها لاقتراح المقابل لكلٍ منها، إيماناً منا بأن الإصرار على بقاء التعليم الجامعي باللغة العربية هو إصرار على عالمية لغتنا العزيزة.

والسلام